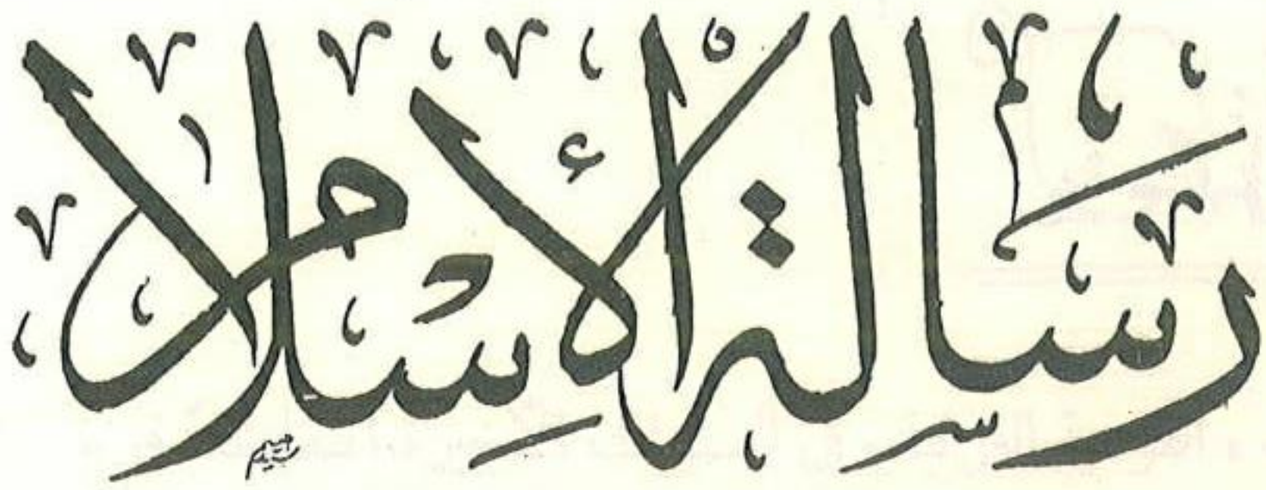

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

ذو الحجة ١٣٧٦ هـ
يوليو ١٩٥٧ م

السنة التاسعة
العدد الثالث

مِنْ زَلّاتِ ٱلْمُسْتَشْرِقِين

للأستاذ عبد الوهاب حمودة

— ٣ —

من زلات المستشرقين خوضهم فى نقد أسلوب القرآن واجتراؤهم بالحكم على بلاغته وأسرار فصاحته ، ومن لهم بهذا القدر من اللغة ، والدرجة من التذوق ، وهم الأجانب الأعاجم والغرباء البعداء .

وهل ينتظر إنسان من أجنبى لم يتفيأ البيئة العربية ، ولم تتعود أذناه جرس اللغة العربية إلا من بعض ألفاظ تلقفها من هنا أو هناك ؛ أن يستطيع الحكم على كتاب الله الذى هو الآية الكبرى فى الإعجاز ، والذى أنزله بلسان عربى مبين ، وتحدى به قريشاً والعرب كافة ، وهم من هم فى الفصاحة والبلاغة ، فقال جل من قائل : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » .

فماذا استطاع العرب جميعاً أن يفعلوه ؟ لم يتقدم أحد لمطاولة القرآن ومحاكاة أسلوبه ، وكان ذلك العجز اعترافاً صريحاً منهم بصدق آية الرسول الكبرى .

وهل أتاك حديث عمر بن الخطاب حين ذهب ليقتل أخته وزوجها لأنهما صبآ ، فما كاد يسمع منها قوله تعالى : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » - إلى آخر الآيات - حتى أحس بقوته القدسية التى لا يقوى على صدها ، ودخل الإيمان قلبه ، فذهب إلى الرسول فبايعه .

وهذا الوليد يقول - وهو من فحول العرب ، وذوى أحلامها ، والمتصرفين فى فصاحتها ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : اقرأ على شيئاً من

القرآن ، فقرأ عليه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى » الآية ، فقال أعد ، فأعاد ، فقال الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما هذا بقول بشر .

فمن زلات المستشرقين واجترائهم على أسلوب القرآن ونقده ما جاء فى دائرة المعارف البريطانية فى بحث مادة « قرآن » فقد كان أسلوب القصص فى القرآن وتكريره موضع هجوم وموطن طعن ، وهو هجوم قائم على الجهل بالأساليب ، وطعن متأثر بالتوراة وما جاء فيها من القصص ، يقول كاتب المقال تحت عنوان : « الضعف الأسلوبى للقرآن » :

« وعلى الجملة فبينما نجد سوراً كثيرة من القرآن تعتبر من غير شك ذات قوة بيانية جديرة بالتقدير والاعتبار حتى بالنسبة للقارىء غير المؤمن ، إذا بالكتاب من ناحية الجمال الفنى فى المقام الأول » .

« ولأجل أن نبدأ بما نقدر على نقده ، دعونا ننظر فى بعض القصص الطويلة ، فهناك نشاهد العنف والجفاف يحلان محل الرصانة الملائمة لسير الأبطال ، وأن الربط الضرورى سواء أكان فى التعبير أم فى تسلسل الحوادث مفقود فى أكثر الأحيان ، حتى يمكن أن يقال : إن فهم تلك القصص أسهل علينا نحن من فهمها لأولئك الذين سمعوها لأول مرة ، وذلك لأننا نستطيع أن نطلع عليها فى مصادر أخرى لا تتيسر لأولئك المعاصرين لمحمد » .

« ونجد على طول الخط جزءاً كبيراً من اللغو والحشو الزائد ، ولا نجد فى أى جزء تقدماً ثابتاً فى القصص » .

« وقصة يوسف دليل على هذا التباين فى المقام التاريخى وما فيها من عدم اللياقة ، وقلة المناسبة الواضحه بالنسبة للقصة الرائعة فى سفر التكوين من التوراة » .

« وكذا نجد أخطاء متشابهة فى الأجزاء غير القصصية ، فارتباط الأفكار مفكك إلى حد بعيد حتى تركيب الجمل ، وبناء الكلمات شاذ يظهر فيه الخلل الأسلوبى والتعقيد اللفظى ، أما ضعف التأليف فكثير الوقوع ، ولا يمكن أن نعتبره ترتيباً

أدبياً صحيحاً ، فكثير من الجمل تبدأ بكلمة « وإذ » التى تظهر كأنها تحلق فى الهواء ، حتى ان المفسرين اضطروا إلى إضافة تقدير « اذكر » ليسدوا هذا النقص ، ويصلحوا هذا الخلل » .

« فليس هناك مادة أدبية عظيمة واضحة فى التكرار الذى لا لزوم له لنفس الكلمات والجمل ، كما نرى ذلك واضحاً فى سورة الكهف ، حيث تكرر فيها قوله : « حتى إذا » فهى قد تكررت ثمانى مرات » .

واختصار القول أن محمداً ليس بأى حال من الأحوال أستاذاً للأسلوب أو البيان ، وهذا الرأى سيوافق عليه أى شخص أجنبى يقرأ القرآن بروح العدل وعدم المحاباة أو التحيز ، مع شىء من معرفة اللغة دون أن يدخل فى ذلك حساب التأثير الممل للتكرار الذى لا نهاية له » .

وللرد على هذا الكاتب نقول :

أولا : إن هذا القرآن ليس من تأليف محمد صلوات الله عليه حتى يوجه إليه النقص والعيب فى أسلوبه وتعبيره بل هو من صنع خالق القوى والقدر .

ثانياً : إن العرب الذين هم أهل البلاغة وفرسان الكلام قد تحدوا فعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، ولو كانوا وجدوا أى عيب فى تأليفه لأسرعوا لإعلانه ومجابهة محمد به وهم أدرى ببلاغته وأسرار فصاحته .

ثالثاً : يجب على الكاتب النسليم بأن لكل لغة خصائصها ومعالم بلاغتها وسمات فصاحتها ، ولا يصح أن تقاس بلاغة لغة على أخرى وليس ما يعد عيباً فى لغة يكون عيباً فى لغة أخرى .

رابعاً : لا تجوز مقابلة أسلوب القصص القرآنى بالقصص فى التوراة لاختلاف الغرض فى الكتابين .

فى التوراة حوادث تاريخية منظمة تجرى فيها الأخبار مجراها الواضح العادى .

يقول الأستاذ (فيلب حتى) أستاذ الأدبيات السامية فى جامعة برنستون يقول فى كتابه « تاريخ العرب » ما ترجمته :

« إنما يقصد القرآن من عرض هذه القصص التوسل إلى التهذيب والتأديب لامجرد سرد قصة ، بل المقصود العظة الخلقية وتعليم الناس إن الله فى الأزمان السالفة كان دائما أبداً يكافىء الأخيار ويعاقب الأشرار وهذه سنته : أما قصة يوسف فقد جاءت فى قالب واقعى جذاب والاختلافات اليسيرة فى هذه وأمثالها من القصص الأخرى كقصة استجابة إبراهيم لدعوة الله الواحد الحق (٥٢ سورة الأنبياء) عن المعروف فى التوراة لها نظائرها التى تقابلها فى المشنا والتلمود وسواهما من كتب اليهود القانونية » .

ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

إن القرآن حملات روحية خطابية ، لا يقصد بها تسلسل الخبر ، ولكن تستخدم فيها القصة للتذكير أو التهويل ، ولذلك ترد مراراً ، وكثيراً ما تروى على سبيل الإشارة والتلميح .

والأسلوب الخطابى يقتضى التكرير . فالقرآن ليس سفر تاريخ ، ولم تذكر أخبار الأولين فيه ، ليتلقاها المخاطبون ، كما يتلقون مسائل التاريخ . (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) .

فلا يضير القرآن أن لا تكون قصصه مسرودة فيه ، ومرتبة على نحو ترتيبها فى كتب التاريخ ، وإنما هو يذكرها كلما سنحت لها مناسبة ، ويذكرها مقدمة أجزاؤها ومؤخرة ، موجزة أو مسببة ، كل ذلك للاعتبار بالنعم والنقم وللاستعانة بهذه القصص على الترغيب والترهيب ، والإيقاظ والتنبيه ، فتتأثر النفوس وتتيقظ القلوب .

أما سر تكرير قصص الأنبياء ، فقد ذكر ابن قتيبة فى كتابه « مشكل القرآن » : « أما تكرار الأنبياء والقصص ، فإن الله عز وجل أنزل القرآن نجوما فى ثلاث وعشرين سنة ، بغرض بعد غرض تيسيراً على العباد ، وتدريجاً لهم إلى كمال دينه ، ووعظ بعد وعظ تنبيهاً لهم من سنة الغفله ، وشحذاً لقلوبهم بمتجدد الموعظة .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما يقرأ الرجل منهم

السورتين والثلاث والأربع ، والبعض والشطر من القرآن ، إلاّ نقرأ منهم وفقهم الله لجمعه ، وسهل عليهم حفظه .

وكانت وفود العرب ترد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للإسلام فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن ، فيكون ذلك كافياً لهم . وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة ، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى قوم ، وقصة نوح إلى قوم ، فأراد بلطفه ورحمته أن يُشهر هذه القصص فى أطراف الأرض ، ويلقيها فى كل سمع ، ويثبتها فى كل قلب .

ومن أسرار التكرير أيضاً أن فى إبراز الكلام الواحد فى صور كثيرة وأساليب مختلفة ، ما لا يخفى من الفصاحة .

منها أنه تعالى أنزل هذا القرآن ، وعجز القوم عن الإتيان بمثله ، ثم أوضح الأمر فى عجزهم بأن كرر ذكر القصة فى مواضع ، إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، بأى نظم جاءوا ، وبأى عبارة عبّروا .

ومنها أن القصة الواحدة لما كررت ، كان فى ألفاظها فى كل موضع زيادة ونقصان وتقديم وتأخير ، وأتت على أسلوب غير أسلوب الأخرى ، فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب ، فى إخراج المعنى الواحد ، فى صور متباينة فى النظم وجذب النفوس إلى سماعها ، لما جبلت عليه من حب التنقل فى الأشياء المتجددة ، واستلذاذها بها ، وإظهار خاصة القرآن حيث لم تحصل مع تكرير ذلك فيه هجنة فى اللفظ ، ولا ملل عند سماعه ، فباين ذلك كلام المخلوقين : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » .

يقول السيد محمد على الهندى فى كتابه « الدين الإسلامى » :

ويعترف كتاب الغرب بما فيهم المتعصبون منهم بمكانة القرآن الرفيعة فى عالم الأدب والدين ، وهاك مقتطفات مما كتبوه عنه .

ويقول « سيل » فى مقدمة ترجمته للقرآن :

إن أسلوب القرآن جميل وفياض ، وفى كثير من نواحيه نجد الأسلوب عذباً

وفخما ، وبخاصة عند ما يتكلم عن عظمة الله وجلاله . ومن العجيب أن القرآن يأسر بأسلوبه هذا أذهان المستمعين إلى تلاوته سواء منهم المؤمنون به والمعارضون له ، ويفسر المعارضون ذلك بقولهم إنهم قد سحروا بالقرآن وأسلوبه فأنصتوا إليه وأعجبوا به .

ويقول « جوتيه » :

لايصح لنا أن نقيس القرآن بأى كتاب آخر من كتب الأدب من حيث عذوبة اللغة وطلاوتها ، وإنما نقيسه بالثورة التى أحدثها فى نفوس المعاصرين لمحمد ، فقد نفذ القرآن إلى قلوب سامعيه بكل قوة وإقناع ، واجتث من ثناياها كل ما كان متأصلا فيها من وحشية ، وانتزع كل همجية ، فأوجد ببلاغته وبساطته أمة متمدينة من أمه متوحشة .

ويقول « هرشفلد » :

ليس للقرآن مثيل فى قوة إقناعه وبلاغته وتركيبه ، وإليه يرجع الفضل فى ازدهار العلوم بكافة نواحيها فى العالم الإسلامى ؟